العرب
الإثنين 2021/08/09
السنة 44 العدد 12143

أناشيد الشاعر السوري سليمان العيسى ما تزال تؤنس الأطفال

صديق البياتي والسياب الذي ظل ينادي بوحدة العرب

قليلون هم الشعراء الذين كرسوا تجاربهم للكتابة للأطفال، على غرار الشاعر السوري الراحل سليمان العيسى الذي آمن بالمستقبل وبأهمية الكتابة للأجيال الناشئة التي اعتبرها مهمة محورية لأدبه، وألف عدة أناشيد حاول من خلالها المساهمة في خلق جيل قادر على التغيير إلى الأفضل.

شاعر اكتشف نفسه من جديد من خلال الأطفال

دمشق – من بين العشرات من الشعراء العرب الذين كتبوا للصغار وملأت قصائدهم صفحات كتبهم المدرسية رسخت في ذاكرتهم نصوص الشاعر السوري الراحل سليمان العيسى التي تناقلتها الأجيال.

ولأن الأطفال هم دائماً أصدق من يتحدث بلسان الشعوب فإن مهجهم البريئة وعواطفهم العفوية توجت العيسى شاعراً للطفولة، أما الكبار فاعتبره بعضهم "شاعر العرب الأكبر" كما وصفه بذلك الشاعر اليمني عبدالعزيز المقالح، وقال عنه صديقه الباحث علي القيم "كتب أغلى الكلمات التي أحبها واعتصر المحال وكتب للنضال وللواحات والرمال".

القضايا العربية

بالعودة إلى سيرة حياة العيسى الذي يصادف اليوم الذكرى الثامنة لرحيله، نجد أنه واحد من المبدعين السوريين الكثيرين الذين أبصروا النور في لواء إسكندرون السليب كحيدر يازجي ووليد إخلاصي وأدهم وصدقي إسماعيل، ففي قرية النعيرية بحارة اسمها بساتين العاصي ولد الشاعر سنة 1921، والتي سيصفها العيسى لاحقاً وهو على مشارف التسعين عاماً يودع الدنيا في كتابه الأخير "النعيرية قريتي" بحواكيرها وعصافيرها وزقزقتها وبيوتها القرميدية وأشجار التين والتوت التي كتب تحت ظلها قصائده الأولى.

> شاعر الأطفال يجب أن يقدم لهم قصيدة تحافظ على مستواها الفني وتخدم أغراض التربية الهادفة والسليمة

كان والد الشاعر شيخاً ورجل دين اسمه أحمد العيسى تلقى على يديه مبادئ القراءة والكتابة في كتّاب القرية، فحصل على تكوين تعليمي متميز وفق الثقافة التقليدية السائدة، فحفظ القرآن الكريم وديوان المتنبي والعشرات من عيون الشعر العربي ثم أشركه معه في التعليم بالكتّاب، وبسبب هذه الرعاية التي رفدت نبوغ الفتى نظم الشعر وهو في العاشرة.

وكانت أسرة العيسى تعيش في حال أقرب إلى الفقر، إذ ليس لها من الموارد إلا ما يناله الأب من راتب تدريس الصغار في الكتّاب وبعض ما تدره عليهم قطعة أرض صغيرة، لكنها خلقت في نفس الطفل تجذراً بالأرض وبالكادحين كما سيكتب ذلك لاحقاً في نشيد "يا شباب العرب هيا".

وعندما قرر العيسى الأب إرسال ابنه ليتعلم في المدرسة الابتدائية بمدينة أنطاكية اختبره مدير المدرسة ثم وضعه في الصف الرابع مباشرة.

وشاءت الأقدار أن يصدم العيسى بما يواجه الأمة من مؤامرات ومخاطر عندما يسعى الاحتلال الفرنسي لأن يسلخ لواء إسكندرون عن جسم الوطن الأم ويعطيه للأتراك، فانخرط في مظاهرات رافضة وألقى قصائد فيها لفتت إليه الانتباه، وحين احتل الجيش التركي المنطقة لم يجد بدا من النزوح تاركاً مدارج طفولته بعين دامعة.

وتابع العيسى دراسته الثانوية بين حماة واللاذقية ودمشق وشارك في النضال الوطني ضد الاحتلال وسجن إثرها أكثر من مرة، حيث عبر عن غضبه من المحتل وعن تطلعه للاستقلال في قصائد عديدة كتبها حينها.

ناهض الشاعر الاستعمار ووقف مع الكادحين داعيا إلى وحدة العرب ليبقى حاملا لهذه الأفكار طيلة حياته، بل إنه ساهم بنشرها عبر قصائده إبان دراسته في دار المعلمين العليا ببغداد والتي تعرف فيها على طلاب سيصبحون لاحقا أدباء كبارا مثل عبدالوهاب البياتي وبدر شاكر السياب ولميعة عباس.

الكتابة للأطفال

لدى عودته من العراق عام 1947 استقر العيسى في مدينة حلب ليعمل في سلك التدريس وليخوض تجربة صحافية فريدة مع صديقه الأديب الراحل صدقي إسماعيل عندما أسسا جريدة فكاهية ناقدة حملت عنوان "الكلب" بمشاركة مجموعة من الكتاب المبدعين من نجاة قصاب حسن وعبدالسلام العجيلي ومنصور الرحباني.

وفي عام 1952 أصدر العيسى ديوانه الأول "الفجر" وبث من خلاله لواعج ذاتية وغزلية وحضوراً أقل للقضايا القومية اشتكى خلالها من تواطؤ أنظمة عربية في ضياع فلسطين سنة 1948.

ولكن الهم القومي مع الإبداعي سيتماهى أكثر عند العيسى وصار أكثر انخراطاً في قضايا الأمة ما جعل الأديب والدبلوماسي الجزائري عثمان سعدي في كتابه "الثورة الجزائرية في الشعر السوري" يرى أن العيسى لعب دوراً بالغ الأثر في حشد الدعم والتأييد لثورة الجزائريين ضد الاحتلال الفرنسي.

وما بين عامي 1952 و1960 أصدر العيسى ستة دواوين شعرية نذكر منها "قصائد عربية" و"صلاة لأرض الثورة" و"ثائر من غفار"، فغدا الشعر عنده رسالة قومية موجهة إلى الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير، وكان شعره النضالي شاملاً لهموم الأمة العربية من المحيط إلى الخليج، ولأجل ذلك جاءت قصائده تلهب النفوس وتأثر بها جيل كامل من الشباب العربي على امتداد الأقطار.

غير أن حادثة الانفصال التي اعترت دولة الوحدة بين سوريا ومصر ثم نكسة يونيو سنة 1967 أخذت تجربة العيسى الشعرية إلى أمداء أخرى مختلفة، فظهر له ديوانان هما "أمواج بلا شاطئ" و"أزهار للضياع"، كانت قصائدهما بمثابة ردة فعل نفسية مسحت شعره في تلك المرحلة بالمرارة والحزن الهادئ وأخمدت ثورة اندفاعه فكانت أشبه بمراجعة للماضي ووقفة على أسباب النكسات.

العيسى الذي تقاعد من عمله كموجّه للغة العربية في وزارة التربية عام 1967 وأسهم بتأسيس اتحاد الكتاب العرب في سوريا عام 1969، انتقل للعيش في اليمن سنة 1980 بحكم عمل زوجته الأديبة الراحلة ملكة أبيض كأستاذة في جامعة صنعاء وهناك ألف سبعة دواوين شعرية خلال 15 عاماً وربطته علاقات قوية مع الوسط الثقافي اليمني ولمس احتفاء أدبياً وشعبياً به.

ومع نضوج تجربته وجد الشاعر أن مواجهة الأمة للتحديات لا تكون بالمباشرة والخطابية بل ببناء الإنسان من داخله وتربية الأجيال الجديدة على الشيم الأصيلة وإشراكهم في التفكير والتدبير لصنع أمنياتهم، فأخذ نتاجه الشعري للكبار يقل ويستعيض عنه بكتابة أناشيد ومسرحيات شعرية للصغار الذين صار يبحث عن غده في عيونهم.

ولم تكن كتابة العيسى عن الأطفال اعتباطاً بل وفق نظرية وضعها هو خلاصتها أن شاعر الأطفال يجب أن يقدم لهم قصيدة تحافظ على مستواها الفني وتخدم أغراض التربية الهادفة والسليمة، وحرص أن تتوافر في شعره الصورة الشعرية الجميلة واللفظة الرشيقة الموحية الخفيفة والفكرة النبيلة الخيرة والوزن الموسيقي الخفيف والرشيق والمزج بين عالمين هما الواقع الحسي والحلم والخيال، محاولا تبسيط المفاهيم وتقريبها بالصور الحسية.

وقد وجد الشاعر والناقد الإماراتي سيف محمد المري أن ما قدمه العيسى في مجال الكتابة للطفل هو أجمل تراث يقدمه لبناء الأمة العربية ويثري مكتبتها بباب هي أحوج ما تكون إليه.

> الشاعر ناهض الاستعمار ووقف مع الكادحين داعيا إلى وحدة العرب ليبقى حاملا لهذه الأفكار طيلة حياته

وبعد أن عاد العيسى إلى دمشق وهو في نهاية السبعينات من العمر أخذ يقضي وقته بين المنزل وعند بعض الأصدقاء وفي اجتماعات مجمع اللغة العربية الذي أصبح عضوا فيه، وظل رغم كل شيء يتمسك بالأمل رغم حال الأمة الصعب الذي كان يصفه بالطارئ، فقال في آخر حديث صحافي أجري معه "لا تيأسوا أبداً، حاولوا أن تنهضوا بعد كل عثرة وأن تفتحوا نافذة حين يغلق أمامكم باب".

وفي التاسع من أغسطس سنة 2013 توقفت حروف العيسى للمرة الأخيرة وصارت قصائده بحكم التاريخ، ولكنه حي وباق على ألسنة الأطفال.

إيمان العيسى بأمّته تجلى في شخصه وأدبه، لأجل ذلك وصفه الباحث الجزائري بوعيسى مسعود بأنه ظاهرة قومية شعورية شعرية وقومي وعروبي مخلص ومناضل صادق.

للعيسى أكثر من سبعين كتابا تأليفا وتعريبا ما بين الشعر والقصة والمسرح والدراسة للكبار والصغار، وحاز العديد من الجوائز أهمها وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة وجائزة لوتس للشعر من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا وجائزة المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (ألكسو) لأدب الأطفال وجائزة الإبداع الشعري لمؤسسة البابطين.

المغربية فاطمة بوهراكة تنقب في ما هو مجهول من الشعر النسائي العربي

الرباط – توجت الشاعرة والباحثة والموثقة المغربية فاطمة بوهراكة مسارا بحثيا بدأته منذ العام 2007 في مجال التوثيق البيبلوغرافي بمنجز ثامن رائد وفريد هو "الرائدات في طباعة أول ديوان شعري نسائي عربي فصيح"، الذي تممت به ثلاثية توثيقية هي الأولى في مجالها في المكتبة العربية.

وجاء هذا التتويج لمسيرتها التوثيقية في حقل الشعر النسائي المعاصر حصرا، مستكملة مهام البحث في البيبلوغرافيا الشعرية العربية لتاريخ شعراء في عدة بلدان عربية تقدمها تباعا ضمن مشاريع ثقافية توثيقية مقبلة.

والثلاثية ضمت كتاب "100 شاعرة من العالم العربي: قصائد تنثر الحب والسلام"، وهو كتاب توثيقي تضمن نصوصا عن الحب والسلام لشاعرات من أغلب الوطن العربي، مترجما إلى الفرنسية والإنجليزية والإسبانية بهدف التعريف بالهوية الشعرية لشاعرات عربيات، لإكسابه بعدا عالميا وحضاريا.

كما تضمنت الثلاثية "موسوعة الشعر النسائي العربي المعاصر (1950 – 2020)" الذي جمع بين دفتيه 1011 شاعرة من مبدعات حرف الضاد خلال الأعوام السبعين الماضية، وهدفت منه الباحثة إلى التوثيق لشاعرات هذا العصر، والتعريف بمنجزهن الشعري، وإغناء المكتبة العربية بهذه النوعية من الكتب التي تعرف ندرة واضحة.

وفي حين تفتقر المكتبة العربية إلى هذا النوع من التخصيص البحثي، أتت هذه الثلاثية وتحديدا الكتاب الذي تمم السلسلة البحثية "الرائدات في طباعة أول ديوان شعري نسائي عربي فصيح" لتكون من أبرز الأعمال البحثية الجادة والهادفة، التي سبرت أغوار تاريخ عريق لشاعرات استطعن أن يكتبن أسماءهن بأحرف مذهبة، كرائدات تركن بصمة في أقسى الظروف الاجتماعية التي كانت تعاني منها المرأة العربية.

وفي ظل الافتقار إلى المراجع وندرة المصادر في العمل البحثي، استطاعت بوهراكة أن تميط اللثام عن أسرار ومعلومات تنشر للمرة الأولى عن شاعرات لم ينصفهن التاريخ الشعري نظرا إلى غياب التوثيق في هذا المجال أو لصعوبة الوصول إلى المصادر. وهذا ما تشرحه الباحثة في مقدمة كتابها إذ تقول "يأتي كتابي هذا المعنون 'الرائدات في طباعة أول ديوان شعري نسائي عربي فصيح' ضمن هذه الثلاثية التوثيقية، لكنه أكثر تخصيصا، فقد حددت مساره بصفة الريادة الشعرية والإخراج الطباعي عند جيل الشاعرات المعاصرات بين سنوات 1867 و2010. إن صفة الريادة في طباعة أول ديوان نسائي داخل أي قطر من أقطارنا العربية في تلك المرحلة ليس بالأمر الهين، بل يتطلب إصرارا وجهدا كبيرين لكي يخرج إلى حيز الوجود، لأن سياسة التطرف والمغالاة في المجتمع وأسلوب الخنق العائلي المتمثلين في إسكات صوت المرأة الشعري وإلجامه، ووضع القيود والحواجز أمام إبداعها، جعلت هذه الأقلام النسائية مكبلة وعاجزة عن طباعة ما تفيض به مشاعرها، لهذا لم نجد سوى قلة من الشاعرات اللواتي ظفرن بطبع دواوينهن، بعد أن تمكن من مواجهة هذه الضغوطات، والتغلب عليها، والقفز على الحواجز المجتمعية المقدسة، فحالفهن الحظ في طبع أعمالهن الشعرية".

وتضيف الباحثة "لقد أكسبتني رحلتي البحثية وعمليات الحفر والتنقيب في منجز شاعرات هذه الحقبة، وتحديدا في أوائل دواوينهن المطبوعة، الحصول على الكثير من المعلومات القيمة التي سيجدها القارئ بين دفتي العمل. كما توصلت إلى مجموعة من المعطيات والقواسم المشتركة بين الشاعرات الرائدات".

ويعد هذا الكتاب البحثي عملا توثيقيا وتأريخيا مهما في الشعر النسائي المعاصر، ليس فقط لأنه قدم للمكتبة الشعرية البيبلوغرافية فكرة جديدة سباقة في التنقيب عن درر مجهولة، بل لأنه استطاع استعادة أسماء باذخة في العطاء الشعري النسائي غيبها النسيان والإهمال لسنوات طوال.

> الباحثة تسبر أغوار تاريخ عريق لشاعرات استطعن أن يخلدن أسماءهن كرائدات تركن بصمة في أقسى الظروف الاجتماعية

واحتوى الكتاب قصائد غير منشورة ومخطوطات قيمة بخط يد الشاعرات وصورا نادرة ومنها ما ينشر للمرة الأولى كصورة الأميرة السعودية الشاعرة سلطانة عبدالعزيز السديري، إلى جانب صور تنشر للمرة الأولى لقبور بعض الشاعرات الراحلات في بلدانهن، بالإضافة إلى معلومات خاصة وحصرية لم يشهدها أي توثيق أو بحث شعري.

كما أن المجهود الذي أنجزته بوهراكة في تتبع آثار الشاعرات والتنقيب المضني وإزالة غبار التاريخ عن شخصيات كان لها أثر كبير في الشعر المعاصر، هو ما ميز هذا الإصدار، إذ يحتاج إنجازه إلى تضافر جهود كثيرة من باحثين أو مؤسسات.

وتضمن كتاب الرائدات عشرين شاعرة رائدة من معظم الدول العربية كن سباقات في نشر أول ديوان، نذكر منهن صاحبة الريادة فيهن جميعا وهي اللبنانية وردة اليازجي من خلال ديوانها "حديقة الورد" الذي طبع عام 1867 في بيروت.

"ثلاثية التوثيق الشعري النسائي العربي المعاصر" قيمة ثقافية شعرية توثيقية مضافة إلى الإصدارات العربية، فهي مرجع نادر موثوق مبني على صدقية عرفت بها بوهراكة، وتعد مع سابقاتها من الأعمال التوثيقية للباحثة خارطة طريق ذات نهج أكاديمي بحثي لكل طالب معرفة وثقافة وعلم في زمن الشح الثقافي والأدبي.

واحتفاء بما قدمته الباحثة للثقافة العربية وتقديرا لمجهوداتها كرّمت بوهراكة بروائع شعرية في ديوان صدر حديثا وطُبع في مصر بعنوان "فاطمة بوهراكة المرأة المؤسسة" وشارك فيه 36 شاعرا وشاعرة من العالم العربي.

ثلاثية بحثية لإنصاف شاعرات رائدات